بين السجناء في حالات القمع فقط . أي لا تتعرف على تفاصيل الحياة اليومية داخل السجن . السجن هنا ، هو كابوس فقط . وعلاقة السجناء ببعضهم ، لا يجري وصفها الا في الذكريات التي تهمل التفاصيل نهائيا وتركز على الاثر البيولوجي والنفسي للقمع . هكذا لا يبقى من هذه الدائرة الاولى سوى مركزها . مركز الدائرة هو صوت رجب ، الذي يركز على عالمه النفسي بوصفه عالما فرديا . هكذا يصبح السجن مجرد كابوس ، وحتى العلاقات النضالية التي يؤشر لها موت القائد هادي تصبح هنا مجرد اشارات ، كأنها لا تنبع من زمن تجربة رجب نفسها.

٢ ــ الدائرة الثانية هي الخارج . والدة رجب وشقيقته وانفعالهما بسجنه والعذابات الشديدة التي يتعرض لها . هنا ، لا وجود سوى لمركز الدائرة الاولى وقد انعكس في علاقات محدودة جدا. العلاقات الفردية ، التي لا تشير الى الحالة العامة الا لتمسها مسا، تضفي على الرواية طابع التحدي الرومانسي ، الذي لا مخرج له سوى بالموت . قد يكون الموت مخرجا للحظات زمنية محددة بوصفه نهايتها ، لكنه لا يستطيع حجب اطار العلاقات الاجتماعية التي تبقى في حركة دائمة ، حتى وان كانت هذه الحركة غير متطورة . هكذا تتزوج هدى وتموت والدة رجب . فيبقى معزولا وبلا أمل ، وليس أمامه سوى جسده المحطم. فيقرر الاعتراف، التوقيع ، والخروج الى فرنسا للعلاج .

٣ ــ هنا نصل الى الدائرة الثالثة التي تتحرك فيها الرواية . انها اصغر الدوائر ، ولكن أشدها دلالة . لانها تكشف المنطلق الايديولوجي الذي يوقع حركة الرواية بأسرها . فمن خلال علاقة رجب بالدكتور فالي ، نكتشف النموذج الليبرالي الذي يقع خلف الرؤية الوحيدة الجانب التي تطبع الرواية بأسرها . النموذج هو الحضارة الغربية التي لا نزال نتسلق درجاتها الاولى ونتعثر . هكذا يفرق رجب في الاستحالة التي يقدمها نموذجه ، ويصبح ضرورة كتلة محطمة . فهذا النموذج ، الليبرالي الغربي ، هو احد اسباب القمع في « شرق المتوسط » . ان علاقته بالتبعية وبالنظام شبه الاقطاعية علاقة جدلية . فالتحرر من القمع الداخلي ، هو في الوقت نفسه تحرر من النموذج أو لا يكون . هذه الاستحالة ، تفسر المسار الرومانسي الذي يغلب عليه النواح في الرواية بأسرها .

علاقة الدوائر الثلاث ، هي كما نرى علاقة تحديد متبادلة ، فاذا كانت الدائرة الثالثة هي المحدد الاساسي ، فان الدائرة الاولى تقدم عبر مركزها ، بتحديد الثانية . هكذا نصل الى دوران بلا هدف ، يقدم صرخة احتجاج دون ان يشرح آليتها . ينقل واقعا من خارجه دون ان يفسره . هكذا نسقط في اللغة السائدة .

ان هذا التحليل الاولي للتمفصل الايديولوجي في الرواية ، يجب ان لا يحجب عنا بنيتها . فمنيف يتقن صناعته جيدا . فاذا قبلنا نقطة انطلاقه الايديولوجية ، نكتشف ترابط بنية الرواية . فالشخصيات تتداخل ، تفتح منافذ على بعضها وتتفاعل . فانهيار رجب هو صدى لموت أمه والحاح جسده وشقيقته . تماما كما كان صموده بسبب موقف امه الشجاع . وموقف حامد المتحدي في نهاية الرواية هو انعكاس للقمع الذي يتعرض له رجب ، وللقمع العام الذي لم يعد يحتمل . وموقف اولاد شقيقته هو ايضا ، يرتبط بالموقف العام الذي يوحد الرواية من خلال شخصياتها .

غير ان هذه الوحدة تبقى شكلية ، في منظور تحليل الشخصيات كشخصيات واقعية . اما اذا حاولنا الانتقال الى التفسير الرمزي ، فاننا عندها سوف ندخل في متاهة لا مخرج . فمن هي الام التي ماتت ؟ هل هي رمز سياسي ، أم هي مجرد رمز نفسي . ان الدخول في اسقاط الرمزية على الرواية يفقدها عناصر وحدتها جميعها ويرميها في فراغ . لذلك نعتقد ان تحليلها بوصفها ثلاث دوائر واقعية تتفاعل ، هو التحليل الاقرب الى الصحة .

تقدم لنا الشهادات التي كتبها سجناء سياسيون (الاقدام العارية على سبيل المثال) وجهة اخرى لتفاصيل الحياة داخل السجن . انها حياة تفصيلية دقيقة ، تستعين عن اتساع المكان ، باتساع العلاقات الرفاقية . هنا نتعرف الى تفاصيل الحياة الاجتماعية وقد حصرت في دائرة ضيقة ، وقدم لها بالرغم من العسف ، صورة مستقبلية . هذه الصورة قد تعارضها صورة انهيارية قمعية أخرى (رواية فاضل العزاوي : القلعة الخامسة) لكننا هنا ايضا نكتشف تفاصيل الفعل الانساني ، امام